بسم الله الرحمن الرحيم

أيها القارئ الكريم :

اقرأ سورة الفاتحة كلما قرأت في كتاب من كتبي ، واهدِ ثوابها إلى العلامة الشهير ، والعارف الكبير ، حامل لواء الحجة بالكتاب والسنة ، المفسّر والمحدث بالأسانيد المتصلة ، عن أكابر المحدثين - في حلب ودمشق والمغرب وغيرها من البلاد الإسلامية - بإجازات عالية الأسانيد - محفوظة عندي - سيدي وشيخي ووالدي الكريم ، الشيخ محمد نجيب سراج الدين الحسيني ، رحمه الله تعالى ، وجزاه عن المسلمين خيرًا ، إنه هو السميع العليم

آمين

بسم الله الرحمن الرحيم

هُدَى القُرآنِ الكَرِيمِ ماجد
إِلَى الحُجَّةِ وَالبُرهَانِ

بقلم

عبد الله سِراج الدّين

مكتبة دار الفلاح

حلب - أقيول

الطبعة الثانية
١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

طبع على نفقة المؤلف وحقوق الطبع محفوظة له

مطبعة الصباح
دمشق - هاتف ٢٢٢١٥١٠
عدد النسخ (٢٠٠٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم علىٰ سيدنا محمد خاتم الأَنبياء والمرسلين ، وعلىٰ آله وصحبه ومن تبعهم إلىٰ يوم الدين .

وبعد :

فاعلم أيها الإنسان المُفكِّر ، والعاقل المتبصِّر ، أنَّ الدين الإسلامِيَّ الحنيف هو قائم علىٰ الحجج القاطعة ، والبراهين الساطعة ، في جميع ما جاء يدعو إليه من : عقائد وعبادات ، ومعاملات ومبادلات مالية ، ومعاشرات زوجية ، وفي سائر مبادئه وَمَضامينه .

وأَنَّ الحُجَجَ والبراهين التي جاء بها الدين الإسلامي هي مَوجَّهةٌ لذوي الأفكار المستقيمة ، والعقول السليمة ، التي تعقل المراد مما جاء عن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم ، الناطق عن وحي من الله تعالىٰ : الوحي القرآني ، والوحي النبوي ألا وهو : كتاب الله تعالى ، وسنة نبيِّه صلىٰ الله عليه وآله وسلم .

وذلك لأن ما جاء عن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم هو منار هَدْي وضياء ، ورشاد وسَداد ، يَسْتنير العقل بضيائه ، ويهتدي بنوره إلىٰ معرفة حقائق الأمور ، ومعرفة حقِّها مِنْ باطلها ، وما يترتَّب عليها مِنْ خير وَشَرٍّ ، وَنَفْع وضرٍّ ، وما تؤدِّي إليه من نتائج حسنة أو سيئة ، وعواقب سليمة أو ذميمة .

فإنَّ ما جاء به رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم هو للعقول السليمة كالشمس المضيئة لأولي الأبصار السليمة ، فإنَّ حاسَّة البصر وحدها لا تنفع صاحبها شيئاً ، ولا تُظهر له مِنْ الخفايا شيئاً ما لم يكن ثَمَّة نُورٌ خارجيٌ آخر يلتقي معه نور البصر ، كما أن ضياء الشمس وجميع النيِّرات لا تنفع مَنْ فَقَدَ نور البصر .

فإذَا مشىٰ نور البصر علىٰ نور الشمس أو القمر ، أو غيرها من النيِّرات : اهتدىٰ البصير إلىٰ مصالح الأمور .

وهكذا فإنَّ مَنْ فَقَدَ نُور العقل لا ينفعه نور الوحي المحمدي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، كما أنَّ نور العقل إذا لم يستضىء بنور الشرع المحمدي فإنه يتخبط في المتاهات ، ويتقلب في الضلالات ، ولا يَعرف حقيقة ما ينفعه وما يضره ، وإلىٰ هذا يرشد الله تعالىٰ عباده فيقول : ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ ﴾ أي : برسول الله سيدنا محمد صلىٰ الله عليه وآله وسلم ﴿ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .

ويقول سبحانه : ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

ومِنْ هُنَا يَعلم العاقل أَنَّ الله تعالىٰ بَعَثَ النبي صلَّىٰ الله عليه وآله

وسلم إلىٰ العالم ومعه نور من الله تعالىٰ ، يضيء للعقول طُرق التَّفَكُّر والتَّذكُّر والتبصر ، فِبِهِ يعلمون الحق عِلْماً جازماً ، وتستنير به قلوبهم ، فيؤمنون إيماناً صادقاً بلا شك ولا ارتياب .

وفيهم يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ .

ومن أجل ذلك جاءت التكاليف الشرعية ، والخطابات الإلٰهية موجهة للعقلاء البالغين ، مرفوعة عن الصبيان والمجانين ، فإذا بلغ العاقل سنَّ الحُلُم صار موضع الخطاب بالتكاليف الدينية ، والأوامر الربَّانِية .

ذلك لأنَّ هذا الدين المحمَّدي جاء بالمعقولات المبرمة ، والقضايا المحكمة ، التي يُوقن بها كلُّ مُنْصف عاقل ، ولا يزيغ عنها إلا متكبر جاهل . وعلىٰ هذا الهدي المحمدي سار الصحابة والتابعون ومَنْ بعدهم إلىٰ يوم الدين ، لأنَّهم أُولو عقول سامية ، وأفكار نيِّرةٍ .

قال أمير المؤمنين علي كرم الله تعالىٰ وجهه : (إذا سمعتم رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم حدثنا فَظُنُّوا به الذي هو أهدىٰ ، والذي هو أهنأ ، والذي هو أبقىٰ) .

وفي رواية عنه : (إذا حَدَّثْتُكم عن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم حديثاً فظُنُّوا به الذي هو أهداه وأهناه وأبقاه) . ا هـ .

والمعنىٰ : أيقنوا بأنَّ ما جاء عنه صلىٰ الله عليه وآله وسلم هو أهدىٰ ما يكون إلىٰ ما فيه سعادة الدنيا والآخرة ؛ ولا أسعد منه ، ولا أرشد منه ، ولا أنفع منه .

ولذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: (إذا سمعت الله تعالىٰ يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ فأَرْعِهَا سمعك فإنه خَيْرٌ تؤمر به، أوْ شَرٌّ تُنْهىٰ عنه).

وقد سُئِل بعض الأعراب فقيل له: بم عرفتَ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم؟.

فقال: ما أمر بشيء فقال العقل: لَيْتَه ينهىٰ عنه، ولا نهىٰ عن شيء فقال العقل: لَيْتَه أمر به.

وقد أذعنت عقلاء البشر وحكماؤهم لِحَقِيْقَة ما جاء به رسول الله محمد صلىٰ الله عليه وآله وسلم، واعترفوا بمعقوليته وحكمته؛ فأسلموا لذلك واستسلموا.

فهذا المنذر بن ساوىٰ، لما بَعَث إليه النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بكتاب مع العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه، يدعوه فيه إلىٰ الإسلام. قال له العلاء حين قدم عليه:

(يا منذر إنك عظيم العقل فلا تُصَغِّرْه في الآخرة، إنَّ هذه المجوسية - أي: التي تدين بها - هي شرُّ دينٍ، ليس فيها تكريم للعرب، ولا علم عند أهل الكتاب، إنهم يَنكحون ما يُستَحْيىٰ منه، ويأكلون ما يُتكرَّم عن أكله - أي: من الخبائث والنجاسات - ويَعبدون في الدنيا ناراً تأكلهم يوم القيامة.

ولستَ - يا منذر - بِعَديم العقل ولا الرأي، فانظر هل ينبغي لمن لا يَكذب في الدنيا أن لا تُصَدِّقه، ولمن لا يخون أن لا تأمنه، ولِمَنْ لا يُخلِف أن لا تثق به.

فَإن كان هكذا، فهذا هو النبيُّ الأمِّي صلَّىٰ الله عليه وآله

وسلَّم ، الذي والله لا يستطيع ذو عقل أن يقول : لَيْتَ ما أمر به نَهىٰ عنه ، وما نَهىٰ عنه لَيْتَه أمر به ، أوْ لَيْتَه زاد في عَفْوه ، أو نقص من عقابه[1] ، إذ كلُّ ذلك جاء منه علىٰ أُمْنِـيَّـة أهل العقل وفِكر أهل النظر) .

فقال له المنذر : قد نظرتُ في هذا الذي في يدي ـ أي : دين المجوسية ـ فوجدته للدنيا دون الآخرة ، ونَظرتُ في دينكم فرأيته للآخرة والدنيا ، فما يَمنعني من قبول دينٍ فيه أُمنِيَّة الحياة وراحة الموت ؟ .

ولقد عجبتُ أمسِ ممَّنْ يَقْبله ـ أي : يدخل في دين الإسلام ـ وعجبتُ اليوم مِمَّن يردُّه ـ أي : لا يدخل فيه ـ مع أنَه جاء بالمنطق السليم ، والعقل القَويم ، وإن من إعظام ما جاء به أن يُعظَّم رسوله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وسأنظر . ا هـ .

أي : سأنظر فيما أصنع من الذهاب إلىٰ هذا الرسول الكريم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، أو مكاتبته ، أو نحو ذلك ، وليس مراده النظر في القبول أو الرد ، لأن قوله : وعجبتُ اليوم ممن يردُّه فيه اعتراف منه بأنه دينٌ حق ، وقد انشرح صدره .

ولما قدم المُهاجر بنُ أبي أمية المخزومي رضي الله عنه ، علىٰ الحارث بن عبد كلال أحد ملوك حِمْير ـ وقد بعثه إليه النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ـ قال له المهاجر :

(يا حارث إنَّك كنت أَوَّل مَنْ عرض عليه المصطفىٰ صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم نفسه ، فخطئت عنه وأنت أعظم قدراً ـ أي : من

---

(١) أي : عقوبته على الجرائم : كالقصاص والحدود والتعازير ونحو ذلك .

غيرك من ملوك حمير ـ وإذا نظرت في غلبة الملوك فانظر في غالب الملوك ، وإذا أسَرَّكَ يومك فخف غدك ، وقد كان قبلك ملوك ذهبت آثارهم ، وبقيت أخبارهم ، عاشوا طويلاً ، وأَمَّلوا بعيداً ، وتزوَّدوا قليلاً ، فمنهم من أدركه الموت ، ومنهم من أكلته النِّقَم.

وأنا أدعوك إلىٰ الربِّ الذي إن أردت الهدىٰ لم يمنعك ، وإن أرادك لم يمنعه منك أحد.

وأدعوك إلىٰ النبي الأمي الذي ليس شيء أحسن ممَّا يأمر به ، ولا أقبح ممَّا ينهىٰ عنه.

واعلم أَنَّ لك ربّاً يميت الحيَّ ، ويحيي الميت ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور). ا هـ.

فالدعوة إلىٰ دين الله تعالىٰ قائمةٌ علىٰ المنطق السليم ، والعقل القويم ، والبرهان المستقيم ، ولذلك ترىٰ أيُّها العاقل أنَّ القرآن الكريم جاء يدعو إلىٰ المنهج الساطع مع البرهان القاطع ، وجاء بالهدىٰ مع بيِّنات من الهدىٰ: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ ، وجاء يهدي إلىٰ سبيل الرَّشاد مع الحجة علىٰ جميع العباد.

وها أنا أذكر وجوهاً من الأدلة القرآنية علىٰ ذلك إن شاء الله تعالىٰ.

ومن أجل ذلك ترىٰ أن الله تعالىٰ أمر رسوله الكريم صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أنْ يَتْلو علىٰ الناس آيات الله تعالى ، داعياً لهم إلىٰ الله تعالىٰ علىٰ بصيرة ، وداعياً إلىٰ الهدىٰ ودين الحق: بالدليل الساطع ، والبرهان اللامع ، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ

﴿رَبِّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾.

فقد أمر الله تعالىٰ رسوله الكريم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بتلاوة القرآن علىٰ الناس داعياً لهم ، وهادياً إلىٰ الله تعالىٰ ودينه القويم ، وشَرْعه الحكيم ، ثم بيَّن نتيجة ذلك أن منهم: من يهتدي ، ومنهم مَنْ يَضلّ بعد ما بلغته الدعوة ، وقامت عليه الحجة ، وأضاءت أمامه المَحَجَّة.

كما بَيَّن الله تعالىٰ أنَّ مِن أعظم مواقف النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم مع العالم ، ومِنْ أَهَمِّ وظائفه التي أمره الله تعالىٰ بها: تلاوة القرآن الكريم علىٰ العباد ، وتعليمهم الكتاب والحكمة وتزكيتهم ، وبذلك يهتدي العباد إلىٰ سبيل الرشاد ، قال الله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾.

وقد قام رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم بذلك أحَقَّ القيام وأكمله ، وأقومه وأحكمه وأحسنه ، يتلو علىٰ العباد آيات الله تعالىٰ ، وَيُسمعهم ذلك حال كونهم أفراداً وجماعات ، في مجالس خاصة ، وفي محافل عامَّة ، فمنهم مَن اهتدىٰ بنور ذلك الهَدْي ، ومنهم من أعرض وَجَحَدَ بعد ما ظهر له نور الحق وبرهان الصدق: عناداً وكِبْراً ، كما هو شأن كل جبَّار عنيد ، يعرف الحق ولا يَعترف به ، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

* * *

القرآن الكريم
كتاب هدي ودعوة إلىٰ منهج الحق
مع الحجج والبينات من الهدىٰ والفرقان

إن كلَّ مَنْ تلا آيات القرآن الكريم أوْ سمعها وتَدَبَّرها يتضح له جَلِيّاً أنَّه جاء بالهدىٰ الثابت بالبينات ، بحيث يحمل العقلاء علىٰ أن يعقلوا ما تضمنته آياته ، وما اشتملت عليه بيّناته ، ينهض بِأولِي الألباب إلىٰ التبصُّرِ في بصائر آياته ، ويدعو الحكماء إلىٰ التفكر في أحكامه وحِكَمِهِ ، وفي علومه ومعارفه ، وفي معانيه ومفاهيمه ، وأسراره وعجائبه التي لا تنقضي ولا تنفد ، مهما امتدَّت العصور ، وتطوَّرتِ القرون والدهور.

ويَتَبَيَّنُ ذلك من وجوهٍ عديدة لا تُحصىٰ ، وإنما أذكر منها أطرافاً موجزة ، تضيء للباحث المُفكِّر المُتَدبِّر طُرُقَ بحثه وتفكيره وتدبره ، فيعلم يقيناً أنَّ القُرآنَ هو: كتاب دعوةٍ وبرهان ، ودَليل وتِبيان ، لجميع الطبقات ، وعموم البيئات ، علىٰ مَمَرِّ العصور وامتداد الدهور:

الوجه الأول: القرآن الكريم أنزله الله تعالىٰ ليعقله العقلاء ،

ويتفهمه الحكماء ، لأنه الكتاب الحكيم ، قال الله تعالى : ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ .

فهذا إعلان من الله تعالىٰ لعباده ، صَدَّر بِهِ هذه السُّوَر الكريمة ، يُعلمهم أَنَّ ما جاء به هذا القرآن الكريم هو الحق المحكم ، والمعقول المبرم ، ليس فيه مصادمة للعقول السليمة ، بل إن تلك العقول السليمة لتتلقَّىٰ ما جاء به هذا القرآن الكريم بِحُسْن القبول ، مع الانقياد والتسليم له ، كما أنه لا يستطيع العقلاء أَنْ يَنقضوا الحقَّ الذي جاء به هذا القرآن الكريم ، أَو يَرُدُّوه . ويتضح ذلك من جوه متعددة :

أ ـ لقد جاء هذا القرآن الكريم يهدي الناس إلىٰ العقائد السليمة ، والأعمال الشرعية الحكيمة ، والآداب والأخلاق الفاضلة الكريمة ، فلو أنه جاء بما ينافي ويعارض عقلاء المكلَّفين لبطلت الحكمة في إنزاله ، وعاد الأمر عليه بالنقض ، لأنه حينئذ لا تتقبله عقلاء المكلفين ؛ فَضْلاً عَنْ أَنْ تعمل بمقتضاه ، وتتحقَّق بما جاء به من عقائد وأعمال وأخلاق ، فإنَّ العمل بغير المعقول لا يَسُوغ عند أهل العقول .

ولكن الأمر الواقع هو أَنَّ الله تعالىٰ بَيَّن في كتابه العزيز الأدلَّة المعقولة المقبولة المحكمة ، ليتلقَّاها العقلاء بالقبول والتصديق ، وليعملوا بمقتضاها ، سواء في ذلك : الأدلة علىٰ الأحكام الإِلٓهية

الإيمانية الاعتقادية ، والأحكام الشرعية العملية .

ب ـ إنَّ مورد التكاليف والخطابات الإلٰهية التي جاء بها القرآن الكريم هو العقل ، فإذا فُقِدَ العقل ارتفع التكليف ، كما هو ثابت في الشرع قَطعاً ، وفي ذلك يقول رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «رُفِعَ القلم عن ثلاث: عن النائم حتىٰ يستيقظ ، وعن الصبي حتىٰ يَشبَّ ، وعن المعتوه حتىٰ يعقل»(١) ، وفي رواية لأحمد: «وعن المجنون المغلوب علىٰ عقله حتىٰ يَبْرأ» .

وهذا واضح في أن ما جاء به الكتاب وكذلك السنة النبوية هو معقول ، بحيث يلزم العاقل المكلَّف أن يعمل بمقتضاه ، فلو أنه كان علىٰ خلاف ما تقتضيه العقول السليمة؛ لكان لزوم التكليف علىٰ العاقل أشَدَّ وأثقل من لزومه علىٰ المعتوه والصبي والنائم ونحوهم ، لأنه لا عقل لهؤلاء يَحْمِلهم علىٰ التصديق بما جاء به؛ أو عدم التصديق .

وأما العاقل فإنه ـ والحالة هذه ـ يأتيه ما لا يمكن تصديقه به عقلاً بل يردُّه العقل ، ومع ذلك هو مُلزم به اعتقاداً وعملاً ، وهذا تكليف بما لا يطاق ، لأنه تكليف العاقل بما لا يُعْقل ، وإن الله تعالىٰ لا يكلف بما لا يطاق .

فإذا كان التكليف بما لا يُعقل ساقطاً عن الذين لا عَقْل لَهُم ، لزم من باب أولىٰ أنْ يكون ساقطاً عن العقلاء أيضاً ، لأنهم حينئذ كُلِّفوا بما تنافيه العقول وترده .

---

(١) عزاه في (الفتح) إلى الترمذي وابن ماجه ، والحاكم ، عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه .

إذاً مَنِ المكلَّف بهذه التكاليف الواردة في الكتاب؟ ولمن تَتَوَجَّه الخطابات الإلٓهية؟؟!!.

وبناءً علىٰ ذلك فَإِنَّ نزول الكتاب الكريم يكون عَبَثاً ؛ والله تعالىٰ منزَّه عن العبث ، بل له الحِكَم الربانيَّة في إنزاله عزَّ وجلَّ الكتاب ، قال تعالىٰ: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ ، وقال تعالىٰ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ .

فَإِنَّ في هذا الكتاب الكريم تربية العالم وصلاحه وفلاحه ، وهداه ونجاحه ، فمن ابتغىٰ الهُدىٰ والفلاح والرشاد والنجاح في غيره فقد ضَلَّ وخاب وخسر . وذلك لأن الذي خَلق العالَمَ هو أعلم بما فيه صلاحه ونجاحه ، ومِنْ ثَمَّ كان الحقّ كلُ الحقِّ ، ومن الحكمة التي هي فوق كل حكمة: أنَّ الذي يخلق هو الذي يَحْكُمُ وَيُشَرِّع لا غيره ، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ، وقال تعالىٰ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ .

فالخالق هو أعلم بما خلق ، والصانع هو أدرىٰ بمصلحة مصنوعه ، وهذا أمر معلوم بالبداهة .

فالله تعالىٰ الذي خلق الإنسان هو أعلم بما أودع فيه من قُوىٰ ومدارك ، وطاقات وقابليات ، وهو أعلم بَكَمِّها وَكَيفها ، ونسبها ومقاديرها ، ويعلم ما فيه من الدواعي والشهوات ، وما يُصلحها ويُعدِّلها ويكمِّلُها ، وهو أعلم بما يفسدها ويضرّ بها .

إذاً فهو سبحانه له الأمر والتشريع ، وإصدار الأحكام التي فيها مصالح العالم وخيره ونجاحه ، لأنه العليم الحكيم ، الذي يضع

الأشياء في مواضعها دون إفراط ولا تفريط ، ويضع الدواء حيث الداء .

وإنَّ حكمة كل حكيم تابعة لعلمه ، وإنَّ علم الله تعالىٰ هو العلم الذي إليه المنتهىٰ؛ ولا منتهىٰ له ، وحكمته فوق كل حكمة؛ ولا حدَّ لها .

فجاء دين الله تعالىٰ قيِّماً مُبرماً ، وجاءت شريعة الله تعالىٰ معقولة محكمة ، فيها كل خير وصلاح وفلاح ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ .

فهو سبحانه الذي خلق الإنسان ، ويعلم ما أودع فيه من القوىٰ ، وما فيه من أمشاج مختلطة ودواعي مختلفة ، ثم إنه هداه السبيل ، وبيَّن له طريق الخير من الشر ، وما فيه صلاحه وفساده ، وسعادته وشقاوته ، بواسطة الشرائع التي أنزلها علىٰ رسله صلوات الله تعالىٰ عليهم ، فقامت الحُجة ، وأضاءت المحَجَّة ، فكانت النتيجة بعد تبصر الإنسان واختياره : ﴿ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ .

ج ـ لو جاء القرآن الكريم إلىٰ الناس بما ليس بمعقول لردَّه الكفار لأوَّل مرة ، بحجة أنه غير معقول ، وأنه مخالف للعقول ، لأنهم كانوا في غاية الحرص علىٰ ردِّه ونقضه، ولكنهم لم يستطيعوا أن يقولوا ذلك ، لأنهم عَقَلُوه وعَرَفُوا أَنَّ ما جاء به هو الحق .

قال تعالىٰ : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ .

وقال تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ .

وقال تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

والمعنىٰ أنهم يَعلمون عِلْمَاً جازماً أنها الحق ، ولكنهم يَجحدون بعد علم ، ولا يعترفون عصبية وكبراً .

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ .

والمعنىٰ أنهم يجادلون في آيات الله تعالىٰ بغير برهان ولا حجة ، بل يدفعون الحق الذي جاءهم به القرآن بالباطل الذي عندهم ، ويردُّون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة ، وهم في ذلك لا يبْلغون ما يَبْتغونه من إجحاد الحق القرآني ، وإعلاء باطلهم المختلِف ، لأنَّ الحق لم يَزل مَرفُوعَ الراية ، وأما الباطل فهو موضوع الغَاية من البداية إلىٰ النِّهاية ، فَاسْتَعِذْ بالله مِن حالهم .

فعنادهم الناشيء عن كِبر النفس ، والعصبية الجاهلية ، ذلك أعماهم وأصمَّهم ، فراحوا يفترون الكذب ، ويصفون القرآن الكريم بأوصاف متناقضة ، وفي هذا دليل بطلان كلامهم ، وحَقِّيَّةُ كلام الله تعالىٰ .

فتارة يقولون: هو سحر ، وتارة فيه شعر ، وتارةً يقولون عنه: مفترىٰ ، وتارة يقولون: ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾ ، وتارة يقولون عنه: ﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ .

هذا تناقض منهم ، لأنها أقوالٌ كاذبة ، والكذب ليس له حقيقة حتىٰ يثبت عليها ويستقر.

وإليك هذه الواقعة شاهداً علىٰ ما سبق:

روىٰ الحاكم في (مستدركه) ، والبيهقي في (الدلائل) من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الوليد بن المغيرة جاء إلىٰ النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، فقرأ عليه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم القرآن ، فكأنَّهُ ـ الوليد ـ رَقَّ له ـ أي: رقَّ قلب الوليد لعظمة القرآن ـ.

فبلغ ذلك أبا جهل ، فَأَتاه فقال له ـ أي: للوليد ـ: يَا عمّ إنَّ قومك يُريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوه لك ، فإنَّك أتيتَ محمداً لتتعرَّض لِما قِبَلَه.

فقال الوليد: قد عَلمتْ قريش أَني مِن أكثرهم مالاً.

قال أبو جهل: فقل فيه ـ أي: في القرآن ـ قولاً يبلغ قومك أنك مُنكر له ، أو أنك كاره له.

فقال الوليد: فماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا بقصيده مني ، ولا بأشعار الجن ، فوالله ما يشبه الذي يقول ـ محمد ـ شيئاً من هذه ، والله إن لقوله ـ أي: قُرآنه الذي يقرأه ـ لحلاوةً ، وإنَّ عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، ومُغْدِق أسفله ، وإِنَّه ليعلو وما يُعلىٰ عليه ، وإنه ليُحطِّم ما تحته.

فقال له أبو جهل: لا يَرضىٰ عنك قومك حتىٰ تقول فيه ـ أي: حتىٰ تقول غير الذي قلت ـ.

قال الوليد ـ لأبي جهل ـ: فدعني حتىٰ أُفَكِّرَ ـ ففكَّر ـ فلمَّا فكَّر

قال: هذا سحر يؤثر، يأثره ـ أي: ينقله ـ محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن غيره، فأنزل الله تعالىٰ في ذلك: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا﴾ الآيات.

فلقد عرفوا الحق الذي جاء به القرآن الكريم وعقلوه، واعترفوا به وأقرُّوه، ثم جحدوا بآيات الله تعالىٰ ظُلماً وعناداً، وتعصُّباً لجاهليتهم.

وهذا كما هو في المشركين، كذلك الأمر في كَفَرةِ أهلِ الكتاب قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: يَعلَمون الحق الذي جِئْتَهم به عِلْماً جازماً ولكنهم يكتمونه.

د ـ إنَّ من تدبَّر في آيات القرآن الكريم، يرىٰ فيها أنواعاً من البيِّنات والبراهين العقلية، التي يُعلِّمها الله تعالىٰ عباده المؤمنين، ليقيموا بها الحجة علىٰ أهل الباطل، ويرُدُّوهم إلىٰ الحق المبين:

فيقول سبحانه في برهان التوحيد والردّ علىٰ المشركين: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ الآية.

ويقول: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ الآية ـ وسيأتي توضيح هذه الأدلة في موضعه إن شاء الله تعالىٰ.

ويقول سبحانه في سياق الردِّ علىٰ الزاعِمين أنَّ هذا القرآن الكريم تَلَقَّاه رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم من أَعْجَمِيٍّ

زَعَمُوْهُ: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾.

وفي سياق الردِّ علىٰ مَنْ زَعَمَ أَنَّ هذا القرآن الكريم جاء به رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم مِنْ كُتب مَنْ قبله، يقول سبحانه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾.

ويقول في ذلك أيضاً: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرًا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

ويقول سبحانه في الردِّ علىٰ مَنْ زعم أنَّ هذا القرآن الكريم قد افتراه رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٍ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَـٰدِقِينَ﴾.

ويقول سبحانه: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِى رَيۡبٍ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَـٰفِرِينَ﴾.

فَتحدَّاهم وأثبت عجزهم في حالِهم، وَسَجَّل عليهم عجزهم في مآلهم، وَعَجْز كلَّ مَنْ يأتي بعدهم، ثم أنذرهم عذابه لعلهم يرجعون إلىٰ صوابهم واعترافهم بحقية كتاب ربهم سبحانه.

ويقول سبحانه في سياق الردِّ علىٰ أدعياء الربوبية: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِى بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَۗ﴾.

ويقول سبحانه في الردِّ علىٰ منكري الخالق الصانع: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَىۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَـٰلِقُونَ﴾.

ويقول سبحانه في الردِّ علىٰ منكري البعث والقائلين بعدم